
الأزهر
المؤتمر الرابع
القاهرة
١٣٨٨ هـ
١٩٦٨ م
مجمع البحوث الإسلامية
كتاب المؤتمر الرابع
بحوث في الفقه والتربية والمجتمع

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية

كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية

رجب ١٣٨٨ هـ
سبتمبر ١٩٦٨ م

بحوث المؤتمر

حول القرآن الكريم

ذكرى نزول القرآن وتحقيق فى تاريخه

للأستاذ عبد الله كنون
عضو المجمع

إن ذكرى أى حادث تقتضى أولا وبالذات التعرض لتاريخ ذلك الحادث ، وتحديد زمن وقوعه ليطابق وقت الذكرى الحادث المذكور ، لامن حيث الظروف الزمنية التى وقع فيها فحسب ، بل ومن حيث الأحوال والملابسات التى صحبته وارتبطت به ، فإن أية ذكرى إنما يراد بها التأمل والاعتبار ، ولا بد من توفير الأسباب المادية والمعنوية التى تعين على تحقيق هذا الغرض المتوخى من الذكرى .

(١) ونزول القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم هو باتفاق المسلمين كان منجما أى مفرقا بحسب الوقائع التى تقتضى نزول ماينزل منه ، إما جوابا عن سؤال وجه إليه صلى الله عليه وسلم، أوحكما فى قضية عرضت عليه ، أو رداً على زعم من مزاعم المشركين فى مسائل الاعتقاد والبعث والجزاء ، أو نقضاً لمطعن من مطاعن اليهود والنصارى فى الرسالة المحمدية والدين الإسلامى ، أو بيانا عاما للناس جميعا فى الدعوة إلى الله ، وحقائق الإيمان، وأصول التشريع ، وأحوال المعاد مما اضطلع الرسول الأكرم بتبليغه إلى الخلق مدة الرسالة لهدايتهم إلى الدين القويم .

وهذا الأمر قد أفصح به القرآن فى معرض الرد على الكفار الذين انتقدوا عدم نزوله مرة واحدة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك)[1] . أى أنزلناه كذلك منجما لتثبيت فؤادك بالوحى المتتابع الذى تتجدد به صلتك بالسماء ، ويستمر إمدادها لك بالعون ، فيطمئن المؤمنون إلى عناية الله بك ، ورعايته لك ، ويرتدع الكفار عن تكذيبك ومحاجتك . لأن فى ذلك تصديقك وتزكية دعواك للرسالة ، بله تسهيل الأمر عليك وعلى المؤمنين بعد إلزامهم بالتكاليف الشاقة دفعة واحدة .

(١) سورة الفرقان : ٣٢

(٢) وقد نشأ عن نزول القرآن بهذه الصفة ، علوم ومباحث واسعة تسمى علوم القرآن لابد للمفسر أن يلم بها ، وإلا عميت عليه الأنباء فى معرفة معانى الآى الكريمة وأسرار التنزيل .

فمنها : العلم بأسباب النزول . وذلك أن القرآن منه مانزل ابتداء ، بياناً للناس ، ومنه مانزل بسبب ما ، جواباً عن سؤال وحكما فى قضية مثلا على مامر آنفا فيحتاج المفسر لمعرفة هذا السبب ، وقد عنى به العلماء شديد العناية وأفردوه بالتآليف العديدة .

ومنها معرفة المكى والمدنى أى مانزل منه قبل الهجرة والنبى صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ، ومانزل بعدها والنبى مقيم بالمدينة ، ويحتاج إليه لمعرفة المتقدم من المتأخر وتترتب على ذلك أحكام ، فضلا عن التفرقة بين طبيعة الدعوة فى الفترتين ، ولا تقل عناية العلماء بهذا البحث عن سابقه .

ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ، فإن بعض الأحكام التى تقررت فى أول الإسلام إنما كانت موقتة للتدرج فى التشريع ثم نسخت بعد ذلك ، ويجب العلم بها لما تتضمنه من حكم كالتيسير على الأمة ، ولما أن الجهل بذلك ربما يؤدى إلى الوقوع فى المحظور ، فقد روى عن على رضى الله عنه أنه قال لقاض : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا . قال : هلكت وأهلكت (١) .

وقد اهتمت الأمة بهذا الفرع من علوم القرآن أشد الاهتمام ، وخصته كتب الأصول بدراسات قيمة ، وأما الذين ألفوا فيه على انفراد فهم خلائق لايحصون من المتقدمين والمتأخرين .

وهكذا نرى عمليا أن القرآن نزل مفرقا ، وفى أوقات متباعدة ، وأن تاريخه هو تاريخ الرسالة ، ومدته هى مدتها أو قريبا من ذلك ، وأنه لايصح أن يقال: إن القرآن - أى المصحف - نزل فى تاريخ كذا لتاريخ معين لايمتد من تاريخ البعثة إلى ماقبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بقليل .

(٣) نعم هناك مبدأ النزول أى أول يوم نزل فيه شىء من القرآن ، وهذا هو الذى يعطينا تاريخ الذكرى ، لأنه يعتبر كيوم الولادة الذى يحتفل به سنوياً كثير من الناس .

ولقد صرح القرآن بأن نزوله كان فى رمضان ، وفى ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) (٢) وقال (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) (٣) .

---

(١) الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ٢٠

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ (٣) سورة القدر الآية ١:

وأكد ذلك بالنسبة إلى الليلة المذكورة قوله فى الآية الأخرى : (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة)[1].

وإذن فقد تحدد نزول القرآن بشهر معين ، وليلة مسماة منه ، ولكن بقى تحديد السنة التى منها هذا الشهر ، وإن لم يتوقف عليها غرض الذكرى ، إلا فى عدد ما مر عليها من السنين .

ومن السهل أن نقول : إنها السنة الأولى للبعثة ، ضرورة أن النزول كان مقرونا بهذه

وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم كانت فى القول المشهور الذى يأخذ به الجمهور ، بعد مرور أربعين سنة على ميلاده الشريف ، وبما أن ميلاده كان فى ربيع الأول من عام الفيل لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، على القول المعتمد ، وذلك يوافق ٢٠ غشت سنة ٥٧٠ م فإن رمضان الذى أنزل عليه فيه كان سنة إحدى وأربعين من ميلاده ، وهى توافق سنة ٦١٠ .

فيكون قد مر على نزول القرآن الآن بالتاريخ الهجرى أربع عشرة مئة سنة بزيادة ثلاث عشرة سنة على عامنا هذا الذى هو عام ١٣٨٧ ، وذلك بالنظر لكون مدة الرسالة ثلاثا وعشرين سنة ، ثلاث عشرة بمكة قبل الهجرة ، وعشرا بالمدينة بعدها ، وهو قول الجمهور الذى عليه المعول [2].

وبالنظر لقول أنس أنه صلى الله عليه وسلم مكث بمكة بعد الرسالة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين ، يكون قد مر على هذه الذكرى ثلاث عشر مئة وسبع وتسعون سنة فقط ، ولكنه قول انفرد به أنس [3] ، وقال العلماء : إنه مبنى على إلغاء السنوات الثلاث التى فتر فيها الوحى.

وثم قول ثالث بأنه صلى الله عليه وسلم مكث بمكة خمس عشرسنة بعد البعثة [4] فيكون الآن قد مر على نزول القرآن عامان اثنان وأربعة عشر قرنا ، وتمام ضبط هذا التاريخ يحملنا على تعيين يوم النزول أيضا فلايبقى مشاعا بين أيام الشهر كله ، وقد اشتهر أنه كان يوم الإثنين لسبع عشر خلت منه رواه ابن سعد [5] وأخذ به غير واحد وهو يخالف ماصرحت به الآية الكريمة من نزوله فى ليلة القدر ، إلا أننا نعلم أن هذه الليلة قد اختلف فيها هى الأخرى ، ومن جملة الأقوال فيها أنها متنقلة بين ليالى رمضان ، فيحتمل أن تكون فى العام صادفت اليوم المذكور ، وهو يوافق ٦ غشت ٦١٠ م ولكن

---

(١) سورة الدخان الآية : ٣

(٢) المصدر السابق ص ل ص ٢٠٨

(٣) طبقات ابن سعد ج ل ص ١٩٠

(٤) البرهان للزركشى ج ل ص ٢٣٢

(٥) الطبقات ج ل ص ١٩٢

الصحيح والذى عليه المعول: أن ليلة القدر هى ليلة سبع وعشرين ، لما فى البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم « التمسوها فى العشر الأواخر »[1] ولما فى مسلم من أن أبى بن كعب قيل له : إن أخاك ابن مسعود يقول : من يقم الحول يصب ليلة القدر . فقال رحمه الله : أراد أن لا يتكل الناس . أما أنه قد علم أنها فى رمضان وأنها فى العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبع وعشرين ، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين بالعلامة التى أخبرهم بها النبى صلى الله عليه وسلم[2]. وحينئذ فموافقتها هو يوم ١٦ من غشت السنة .

(٤) هذا تاريخ نزول القرآن بمعنى مبدأ نزوله ، مأخوذا من القرآن نفسه ، وهو أحد المعنيين اللذين حمل العلماء عليهما الآيات الواردة فى ذلك .

والمعنى الثانى أن نزوله كان جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى مدة الرسالة التى تتراوح بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة على الخلاف فيها . وهو قول أكثر المفسرين وتؤيده الرواية الصحيحة عن ابن عباس قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة » أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وأخرجه النسائى بلفظ : فصل القرآن من الذكر ، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم . قال البدر الزركشى وإسناده صحيح[3].

ومعلوم أن هذا لا يقال من قبل الرأى ، فحكمه الرفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذا النزول الغيبى إن كان مما يحمل على القول به هو إبقاء الآيات الواردة فى نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فإنه لا يعارض نزوله الحسى فى التاريخ المذكور ، أى ابتداء نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم مفرقا ، بل إن الرواية نفسها تشير إلى ذلك وتبين المراد به ، فهما إذن نزولان: غيبى وحسى وتاريخهما واحد .

ويتسائل العلامة الزركشى عن السر فى هذا النزول ، ويجيب عن ذلك بقوله : « فإن قيل : ما السر فى إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل : فيه تفخيم لأمره وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلان

---

(١) ج ل ص ٢٥٢

(٢) المصدر السابق ج ل ص ٢٣٠ والجملة الأخيرة وردت فيه هكذا . ولقد صرفناه اليوم ابنزله عليهم وقد صححناه من الإتقان .

(٣) البرهان ج ل ص ٢٢٩

سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لننزله عليهم[1].

على أننا يمكن أن نقول فى حكمة ذلك: إنه لاطلاع الملائكة وجميع المؤمنين بالغيب على إحاطة علم الله تعالى فى الأزل بواقع الأشياء كما تقع فيما لا يزال، خلافا لمن نفى علمه بذلك من الفلاسفة والمعتزلة، وقال: إنما يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، فهو برهان يطمئن إليه المؤمن. ويتأيد بممارسة السيرة ودراسة القرآن.

(٥) وكان أول مانزل هو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك)[2] كما تفيده السنة الصحيحة، ففى البخارى عن عائشة قالت: « أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء. فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: أقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى الثانية، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى الثالثة. ثم أرسلنى فقال: (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده .. » الحديث[3].

لكن جاء فى صحيح مسلم عن جابر: « أول مانزل من القرآن سورة المدثر »[4]، وهذا محمول عند العلماء على مابعد فترة الوحى التى تلت النزول الأول[5]، والروايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البخارى وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك، ونورد هنا رواية البخارى لوضوحها واختصارها، وهى عندهما معاً من طريق ابن شهاب الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحى: « بينا أنا أمشى، إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملونى زملونى » زاد مسلم فدثرونى، فأنزل الله تعالى (يأيها المدثر* قم فأنذر - إلى قوله - والرجز فاهجر) فحمى الوحى وتتابع[6].

---

(١) المصدر السابق ج ل ص ٢٣٠ والجملة الأخيرة وردت فيه هكذا ولقد صرفناه إليهم لينزله عليهم وقد صححناه من الاتقان. (٢) سورة العلق: ١

(٣) البخارى ج ل ص ٣ وقوله فغطنى أى ضمنى إلى صدره قصد الاستئناس وإزالة الرعب، وانتهت رواية البخارى إلى قوله وربك الأكرم، ولكن رواية مسلم تنتهى إلى قوله مالم يعلم (٤) ج ل ص ٦٦

(٥) البرهان للزركشى ج ل ص ٢٠٦ (٦) صحيح البخارى ج ل ص ٤

فبان بهذا أن الأولية الحقيقية هى التى فى حديث عائشة ، وأن التى فى حديث جابر إنما هى أولية إضافية ، لأن الحديث عن فترة الوحى لايكون إلا بعد وحى سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يأيها المدثر .

ومما ينبغى تسجيله بعد تحقيق تاريخ النزول وأول مانزل، مما تضمنه حديث عائشة أن مكان النزول الأول هو غار حراء ، وبذلك نكون قد تعرفنا الظرفين الزمانى والمكانى لنزول القرآن الكريم أول مانزل .

والأمر الرائع فى أول القرآن نزولا هو هذا الخطاب الإلهى السامى المتضمن لطلب القراءة من النبى صلى الله عليه وسلم ولفت نظره إلى التفكير فى خلق الإنسان والإشادة بالعلم ، مما يدل على أن خاصية الدعوة الإسلامية هى المعرفة ، ومن ثم قال كثير من علمائنا : إنها أول الواجبات على المكلف .

وقال آخرون : إن أول الواجبات النظر الموصل إلى المعرفة وناهيك بهذا ، على أن الحض على العلم والتنويه به وبأهله مما فاض به القرآن الكريم والسنة النبوية حتى أصبح معلوما من الدين بالضرورة .

وإذا كان أول مانزل هو قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) كما ثبت لدينا بالدليل القاطع ، فإن آخر مانزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى : (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية[1] أخرجه النسائى وابن مردويه والطبرى عن ابن عباس[2] .

وهذا يرشدنا إلى أن ثمرة المعرفة هى التقوى التى تعنى حسن السلوك ومحاسبة النفس ، فالعلم فى الإسلام ليس غاية فى ذاته ، ولكنه وسيلة إلى تزكية النفس ونفع العباد حتى يكون الإنسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذى أهل له منذ وجود أول فرد منه ، وهو خلافة الله فى أرضه . المقتضية لإعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدارين .

(٦) والقرآن معجزة الإسلام الباقية على مر الزمن ، تقيم له الحجة على البشر ، وتؤيد دعوته بما تأيدت به الدعوات التى سبقته من الأمور الخارقة للعادة ، إلا أن تلك الخوارق قد انقضت بانقضاء مدتها ، والقرآن مايزال ولن يزال قائما بالحجة ناهضاً بالدليل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨١

(٢) الإتقان للسيوطى ج ل ص ٢٧

وذلك لأن الإسلام هو آخر الأديان ورسوله هو خاتم الرسل ، فلئن كانت رسالة السماء فيما مضى من الأحقاب تتأيد بمعجزات الرسل الذين كان بعضهم يأتى فى أعقاب بعض معلما مرشدا ومشرعاً مجدداً ، لأن الإنسانية كانت ماتزال فى طور النمو لم تبلغ رشدها العقلى بعد ، فإنها بعد البعثة المحمدية قد دخلت فى سن الاكتمال والنضج والفكر ، ولم تبق بحاجة إلى من يحضنها ويرعاها ، ويمثل لها المعقول بالمحسوس والغائب بالحاضر ، ولكن عليها أن تستعمل فكرها وتجيل النظر فى آيات الله وملكوته ، وفى خلقها ونفسها ، لتعرف الحق بالدليل العقلى القاطع ، وتصل إلى اليقين بالحجة والبرهان الذى لايقبل النقض ، وهذا هو ماجاء به القرآن ، ودعا إليه القرآن ، ففى كل عصر ، وفى كل جيل يقوم القرآن بالمهمة التى كانت تقوم بها المعجزة المحسوسة لتصديق الرسل ، ولكنه معجزة معقولة تخاطب الضمير والوجدان ، وتستثير الإنسان لتحكيم عقله والاعتبار بما نصب الله عز وجل فى الكون من آيات بينات ، وشواهد واضحات ، على وجوده وألوهيته ووحدانيته وصدق رسوله فيما أخبر به عنه من أحوال المعاد ، وما دعا إليه من عبادته والعمل بشريعته التى تحقق السعادة الأبدية ، وتكفل للناس مايصبون إليه من طمأنينة نفس وراحة بال .

فمن هنا كان القرآن معجزة الرسالة الخاتمة .

أولا : لأن البشرية بما حققت من تطور فى ميدان العلم والمعرفة ، أصبحت تتطلب معجزة من قبيل ماتأخذ به من دلائل العقل وقضايا المنطق ، لا مايستهوى الحس ويمتلك البصر فقط .

ثانيا : لأن استمرار الرسالة المحمدية بحكم ختميتها يقتضى استمرار معجزتها المؤيدة لها ، ولايمكن أن تكون المعجزة المحسوسة مستمرة وإلا صارت أمراً عادياً . فلم يكن بد من المعجزة العقلية الباقية ببقاء الدعوة وقد كانت هى القرآن .

وهذا المعنى هو ماعبر عنه الحديث الشريف المخرج فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن الأنبياء نبى إلا أعطى مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلى . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[1].

وقد زاد الحديث على أصل المعنى شيئا آخر وهو رجاؤه صلى الله عليه وسلم أن يكون أكثر

---

(١) البخارى ج ٤ ص ١٨٣

الأنبياء أتباعا يوم القيامة ، ورجاء النبى محقق قطعا ، فأما بالنسبة إلى الأنبياء السابقين الذين انقضت دياناتهم ، فذلك مسلم : لأن المؤمنين بهم كانوا قلة كما نطقت به الآية الكريمة فى حق نوح عليه السلام إذ يقول : « وما آمن معه إلا قليل »(1).

ولأن تعاقب الأنبياء الواحد تلو الآخر يجعل أتباع كل واحد بحكم قصر المدة التى بينه وبين الذى يليه عدداً قليلا .

وأما بالنسبة إلى الأديان الباقية ، فاليهودية أمرها لاخفاء به ، والمسيحية وإن كان التعداد الرسمى لأتباعها يفوق تعداد المسلمين ، إلا أن واقعها ليس كذلك ، فإن أكثر المسيحيين اليوم ملحدون ، هذا فى البلاد غير الشيوعية ، وأما فى هذه البلاد فمن الذى يقول إن سكانها مسيحيون ، وأما قبل اليوم فإن المسيحيين كانوا قلة ، ولم يكثر سكان أوربا إلا بعد عصر النهضة وتقدم الطب ، والعناية بالمواليد وتدبير الصحة ، ولكن صحب ذلك انتشار الإلحاد ، فلم يكن كل سكانها دائما من المتدينين .

بقيت الأديان الشرقية من بوذية وغيرها ، والقول فيها مثل القول فى المسيحية فإنها لم يكثر أتباعها إلا فى العصور المتأخرة ، وقد فشا فيهم الإلحاد فشوا ظاهرا على أنها فى الحقيقة أديان متعددة ، وليس أتباعها ملة واحدة ، وإن اعتبرهم التعداد الرسمى كذلك ، وهاهى ذى الصين الشيوعية تتبرأ من الدين وتنشر الإلحاد كزميلتها روسيا ، بل إنها لتتحمس للينينية أكثر من قوم لينين .

وليس يخاف أن التعداد الرسمى لأتباع الأديان فى العالم يصدر من جهات غير مأمونة على الحقيقة فى هذا الصدد ، فبقطع النظر عما بيناه من عدم انطباق الخبر على الواقع فى أمر المسيحية ، نجد أن عدد المسلمين يكون دائماً أقل مما هو فى الحقيقة ، لأن تلك الجهات تتعمد ذلك قصد التهوين من شأن الإسلام والفت فى عضد أتباعه ، والرفع من معنويات المسيحيين ، وإظهارهم بمظهر التفوق فى كل شىء حتى فى عددهم ، وإلا فإن آخر إحصاء نشر فى هذه السنة وهو يجعل عدد المسلمين أربعمائة مليون ، فى حين يجعل المسيحيين ثمانمائة مليون ، هو مما يكذبه الواقع تكذيباً قاطعاً ، فإن عدد المسلمين فى باكستان ، وأندونيسيا ، والهند ، والصين ، وتركيا ، وإيران ، والأفغان ، هو وحده أكثر من أربعمائة مليون فأين بقية المسلمين فى آسيا وهم العرب ، وفى إفريقيا وفيهم عرب كالمصريين ، والأفارقة الشماليين ،

---

(1) سورة هود الآية ٤٠

وغير عرب ، كأهل الأقطار الأفريقية الأخرى ؟ وأين مسلمو أوربا المنتشرون بكثرة فى روسيا ، وبوغوسلافيا ، وبولندا ، وفنلندا ، وألبانيا ، وغيرها من دول أوربا ؟ وأين مسلمو الفلبيين والأمريكتين ؟

على أننا تنزلنا باعتبار هذه الأديان المخالفة للإسلام أديانا حقيقية ، جريا على مايقضى به العرف والقانون ، وأما إذا نظرنا إليها بنظر الإسلام وهو النظر الصحيح الذى يتوافق مع مراد الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الآنف الذكر ، فإنها أديان محرفة عن وضعها الإلهى ، أو أديان وثنية لا اعتداد بها فى مفهوم الدين الحق ، ولن يكون لمعتنقيها صلة أو سبب يربطهم برسل الله عليهم الصلاة والسلام حتى يقال إنهم سيكونون من أتباعهم يوم القيامة ، فإن الرسل أول من يتبرأ منهم فى ذلك الموقف الهائل على ماجاء فى القرآن :

(إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العذاب وتقطَّعَت بهمُ الأسبابُ)(١).

وقال تعالى فى آية أخرى خاصة بالمسيح عليه السلام :

(وإذْ قالَ الله ياعيسى ابنَ مريمَ ءأنتَ قلتَ للنّاسِ اتّخِذونى وأمِّىَ إلٰهينِ منْ دونِ اللهِ ؟ قالَ سبحانكَ مايكونُ لى أنْ أقولَ ماليسَ لى بحقٍّ ، إنْ كنتُ قلتهُ فقدْ علِمتَهُ ، تَعلمُ ما فى نفسى ، ولا أعلمُ ما فى نفسِكَ إنّكَ أنت علاَّمُ الغُيوبِ * ماقلتُ لهمْ إلاَّ ما أمرتنى بهِ أن اعْبُدُوا الله ربِّى وربَّكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهمْ ، فلمَّا توفَّيتنى كنتَ أنتَ الرَّقيبَ عليهمْ ، وأنتَ على كلِّ شىء شهيد)(٢).

نخلص من هذا أن نبينا صلى الله عليه وسلم ، هو كما قال : أكثر الأنبياء أتباعا يوم القيامة ، وذلك منسجم مع كون رسالته دائمة مستقرة ببقاء الزمن ، لأنها خاتمة الرسالات ، ولذلك كانت معجزتها باقية دائمة وهى القرآن .

(٧) وذكرى نزول القرآن فى ليلة القدر من شهر رمضان ، ذكرى عظيمة بل هى أعظم الذكريات على الاطلاق ، لأن القرآن كتاب الله أى رسالته الخالدة إلى البشر التى أخرجتهم من الظلمات إلى

---

(١) سورة البقرة : ١٦٦

(٢) سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٨

النور ، واستنقذتهم من الضلال إلى الهدى ، وضمنت لهم سعادة الدنيا والآخرة إن هم عملوا بها ولم يتخذوها وراءهم ظهريا .

كان الناس يهيمون فى أودية الجهل بالله . فمنهم من يجعل معه إلها آخر ، ومنهم عبدة أصنام ، ومنهم من يقول : إنما هى أرحام تدفع وأرض تبلع ، ومايهلكنا إلا الدهر ، فجاء القرآن بالتوحيد مزيفاً عقيدة الشرك ، ومسفهاً عقول الوثنيين ، ورد على الدهريين بما أبطل دعواهم وألزمهم الحجة على وجود الله ، هاك مثلا قوله فى الرد على النصارى الذين يزعمون ألوهية المسيح وأمه :

(ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قدْ خَلتْ منْ قبلهِ الرُّسلُ وأمُّهُ صِدِّيقةٌ كانا يأ كلانِ الطَّعام)[1].

وقوله فى الرد على عبدة الأصنام : (أتَعْبُدونَ مَا تَنْحِتُون والله خلقكم وما تعْمَلون)[2] :

وقوله فى الرد على الدهريين :

(قُتلَ الإنسانُ ما أكفرَه * منْ أيِّ شيء خلقَهُ * منْ نُطفةٍ خلقَهُ فقدَّره)[3].

ثم عرف المؤمنين بالله عز وجل تعريفا يحصل معه الاطمئنان ، وتنتفى عنه الوساوس ، فدلهم على صفاته وأفعاله ، ولم يشغلهم بماهيته ، وذاته ، علماً بقصورهم عن إدراك حقيقته ، وكيف يحيط الفانى بالباقى؟

(لا تُدرِكهُ الأبصارُ ، وهوَ يُدركُ الأبصارَ ، وهوَ اللَّطيفُ الخبيرُ)[4].

ومع أن نعمة المعرفة به عز وجل هى أعظم النعم ، وهى التى تقطعت دونها أعناق الفلاسفة منذ القدم ، فإن القرآن لم يكتف بهداية البشر إلى هذه النعمة ، بل زاد فتفضل عليهم بالإرشاد إلى كيفية شكرها الواجب ، وذلك بأن دلهم على طريقة عبادته تعالى والتقرب إليه وطلب مرضاته ، وهى أيضاً الطريق التى ضل فيها من لا يحصى عدداً من الحكماء المتألهين .

(الم ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه هُدًى للمتَّقين ، الذينَ يُؤمنونَ بالغيبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رزَقناهُم ينفِقون ، والذين يؤمنون بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزل منْ قبلك وبالآخرةِ هُم يُوقنون ، أولئك على هدًى مِّن ربِّهم وأولئكَ هم المفلحون)[5].

وكان من أعظم مقاصد القرآن أن شرع للناس ماينظمون به أحوالهم المعاشية ، ويضبطون به أمور الحياة الدنيا من قوانين وأحكام غيرت فى وجه كل ماوضع من طرف البشر فى هذا الصدد ، لأنها صانت

---

(١) سورة المائدة : ٧٥ (٢) سورة الصافات : ٩٥ ـ ٩٦ (٣) سورة عبس : ١٧ ـ ١٩
(٤) سورة الأنعام : ١٠٣ (٥) سوزة البقرة : ١ ـ ٥

مصالح الفرد والجماعة ، وحمت حقوق الناس جملة وتفصيلا ، وكان رائدها تحقيق العدالة الاجتماعية ، والحرص على المساواة بين عباد الله ، فإنها لم تقم للانسان ميزانا إلا ميزان التقوى أى الاستقامة .

(يا أيُّها النَّاسُ إنّا خلقناكم مِّنْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكُمْ شُعوبا وقبائلَ لتعارَفوا ، إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم)[1] .

كما وضع القرآن دستور الأخلاق والسلوك الحسن ، والمعاملة الطيبة للناس :

(إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذِي القُرْبى وينهى عنِ الفحشاء والمنكر والبغى يعظُكم لعلَّكم تذكَّرُون ، وأوْفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتمُ ، ولاتنقُضُوا الأيمانَ بعد توكيدِها وقد جعلتمُ اللهَ عليكم كفيلا)[2] .

وتأتى العقدة التى حارت عقول المفكرين فى حلها ، وهى ما الموت أو الحياة الآخرة ، فإذا بالقرآن يكشف عنها الستار ، ويعطى عنها بيانات مدهشة مصحوبة بالأدلة والحجج الواضحة التى تجعل الغيب واقعا ، والمستقبل محسوسا ، وتوحى بالإيمان العميق بالبعث والحساب والجزاء مماخلت منه حتى الكتب السماوية الموجودة بأيدى المؤمنين بها ، متذرعا بذلك إلى إيجاد وازع دينى عند كل فرد يحجزه عن اقتراف الإثم ، وارتكاب العدوان ، لأنه يعلم أنه مسئول عن كل ماقدم ، وأنه لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(ياقوم إنما هذهِ الحياةُ الدنيا متاعٌ ، وإنَّ الآخرةَ هى دارُ القرارِ ، مَنْ عملَ سيِّئة فلايجزَى إلاَّ مِثلها ومَنْ عملَ صالحا مِّن ذكرٍ أوأنثى وهو مؤمنٌ فأُولئك يدخُلون الجنَّة يرزقون فيها بغيرِ حساب)[3] .

هكذا هدى القرآن البشر من الضلال ، وأنار لهم سبيل الحياة الراضية المرضية فى الدنيا والآخرة ، فأى خير عظيم هذا الذى أنزل فى ليلة القدر من شهر رمضان ، وأى ذكرى تعادل هذه الذكرى التى أتاحت للبشر أن يسعدوا سعادة لاشقاء بعدها أبدا .

إن شهر رمضان يشرف بوقوع هذا العطاء الكريم فيه :

(شهرُ رمضانَ الذى أنزلَ فيه القرآنُ هدًى للناسِ وبيِّناتٍ مِّن الهدَى والفُرْقانِ)[4] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣
(٢) سورة النحل : ٩٠ ـ ٩١
(٣) سورة غافر : ٣٩ ـ ٤٠
(٤) سورة البقرة : ١٨٥

وأن ليلة القدر التى فضل بها شهر رمضان غيره من الشهور ، لهنقل وزنها بهذه الكرامة التى خصت بها حتى لاتوازيها ليلة من ليالى الدهر .

(إنّا أنزلناهُ فى ليلةِ القدْر ، وما أدراكَ ما ليلةُ القدرِ ، ليلةُ القدرِ خيرٌ مِّن ألفِ شهرٍ ، تنزّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذن ربهم مِّن كلِّ أمرٍ ، سلامٌ هى حتّى مطلع الفجرِ) (١).

وليست هذه الذكرى مما يفى بحقها كلمة قصيرة مثل هذه ، ولكن استشعار عظمة المذكور الذى هو فى الحقيقة منزل القرآن ، والاستغراق فى سبحات جماله وجلاله ، والتعرض لنفحاته القدسية ، والحضور بالقلب والقالب ساعة الذكرى ، لاتستفاد من الكلمات قصيرة كانت أوطويلة ، وإنما تستفاد من الإيمان بالقرآن والعمل برسالة القرآن .

(ربّنا آمَنّا بما أنزلتَ واتّبعنا الرّسولَ فاكتُبنا معَ الشّاهدِين) (٢).

(١) سورة القدر : ١ ــ ٥

(٢) سورة آل عمران : ٥٣